مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١ كورنثوس ١: ١–١٧)

يا إخوةُ أطلُب إليكم باسمِ ربِّنا يسوعَ المسيحِ أن تقولوا جميعُكم قولاً واحداً وأن لا يكونَ بينكم شقاقاتٌ بل تكونوا مكتمِلينَ بفكرٍ واحد ورأيٍ واحد* فقد أخبرني عنكم يا إخوتي أهلُ خُلُوي أنَّ بينكم خصوماتٍ* أعني أنَّ كلَّ واحدٍ منكم يقول أنا لبولُسَ أو أنا لأبلُّوسَ أو أنا لصفا أو أنا للمسيح* ألعلَّ المسيحَ قد تجزَّأ. ألعلَّ بولسَ صُلبَ لأجلِكم أو باسمِ بولسَ اعتمدتم* أشكُر الله أنّي لم أعمِّد منكم أحداً سوى كرِسبُس وغايُوس* لئلاَّ يقولَ أحدٌ إنّي عمَّدتُ باسمي* وعمّدتُ أيضاً أهلَ بيتِ استفاناس. وما عدا ذلك فلا أعلمُ هل عمَّدت أحداً غيرهم* لأنَّ المسيحَ لم يُرسلني لأُعمِّدَ بل لأبشِّرَ لا بحكمةِ كلامٍ لئلاَّ يُبطَلَ صليبُ المسيح.

نور التجلّي

«إن الذي خاطب موسى على طور سيناء قديماً برموز قائلاً: أنا هو الكائن، اليوم تجلّى في طور ثابور على التلاميذ، **وأظهر في ذاته جمال عنصر الصورة الأولى باتخاذه الجوهر البشري** (...)» (في الأبوستيخن ـ صلاة غروب التجلّي).

ظهر في الشرق المسيحي، أواسط القرن الرابع عشر للميلاد، تباين لاهوتي حول طبيعة نور التجلّي، بين قائلين بإمكانية امتلاء الإنسان من هذا النور عينه، بالنعمة، وبين متأثرين بتيارات غربية كانت تقول باستحالة مثل هذا الاشتراك. أخطر ما في هذا التباين أنه طاول مسألة إيمانية عميقة وحساسة، هي حقيقة الاختبار الروحاني الشخصي للنعمة وطبيعة النعمة من حيث أنها عطية من عطايا الله المخلوقة، أو قبس من صلب مجده غير المخلوق. أي أن تأله الإنسان وعودته إلى ما كان عليه قبل السقوط، أي جمال عنصر الصورة الأولى على ما في الترنيمة أعلاه، هو ما كان مطروحاً في مواجهة بين اللاهوت الصوفي الساعي عبر عيش النعمة كيانياً إلى معرفة الله، وبين الفلسفة الدينية الساعية بالعقل والمنطق إلى جمع معارف عن الله، ونكران كل ما لم يكن بالمنطق البشري معقولاً.

في روحانيتنا الأرثوذكسية أن هذا النور (أو الإستنارة) هو الطابع المنظور للألوهة، أو للنعمة التي يكشف الله بها عن نفسه. إنه ليس نوراً بالمعنى الذي يستعار لاستنارة الفكر أو العقل البشري بالمعارف أو العلوم، وهو ليس أيضاً نوراً بالمعنى الحسي أو المادي للكلمة. إنه نور يُفعم العقل والحواس معاً، أي إنه يملأ كيان الإنسان برمته وليس واحدة أو أكثر من خاصياته. النور الإلهي هو معطى من معطيات الخبرة الروحية الشخصية، خبرة الإلفة الصوفية مع الله، ولذلك فهو يتجاوز العقل والحواس معاً.

معظم الآباء الذين تأملوا في سر التجلّي أكّدوا على الطبيعة غير المخلوقة، الإلهية، للنور الظاهر على ثابور. النور الذي عاينه التلاميذ هو من الله بطبيعته، وهو أزلي ولا تحده أبعاد الزمان والمكان، وهو نفسه الظاهر كمجد الله في العهد القديم. بيد أن ظهورات النور في العهد القديم كانت ترعب الإنسان لأنها كانت بعد غير مألوفة للطبيعة البشرية قبل

العدد ٢٠٠٩/٣١

الأحد ٢ آب

تذكار نقل عظام القديس استفانس أول الشهداء ورئيس الشمامسة

اللحن السابع

إنجيل السحر الثامن

الإنجيل

(متى ١٤: ١٤–٢٢)

في ذلك الزمان أبصرَ يسوعُ جمعاً كثيراً فتحنَّنَ عليهم وأبْرأَ مرضاهم* ولمَّا كان المساءُ دنا إليهِ تلاميذُهُ وقالوا إنَّ المكانَ قَفْرٌ، والساعةُ قد فاتَتَ فاصْرِفِ الجموعَ ليذهبوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً* فقال لهم يسوعُ لا حاجةَ لهم إلى الذهابِ أَعْطوهُم أنتم ليأكلوا* فقالوا له ما عندنا ههنا إلاَّ خمسةُ أرغفةٍ وسمكتانِ* فقال لهم هلمَّ بها إليَّ إلى ههنا* وأمر بجلوسِ الجموع على العشبِ. ثمَّ أخذَ الخمسةَ الأرْغِفَةِ والسمكتينِ ونظرَ إلى السماءِ وباركَ وكسرَ وأعطى الأرغِفَةَ لتلاميذهِ والتلاميذُ للجموع* فأكلوا جميعُهم وشبعوا ورفعوا ما فَضُلَ من الكِسَرِ اثنتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مملوءةً* وكان الآكِلونَ خمسةَ آلافِ رجلٍ سوى النساءِ والصِبيانِ* وللوقتِ اضْطَرَّ يسوعُ تلاميذَهُ أن يدخلوا السفينةَ ويسبِقوهُ إلى العَبْرِ حتى يصرِفَ الجموع.

المسيح، وقبل الحياة المستمرة فيه بالكنيسة. عن هذا يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث إن الرسول بولس على الطريق إلى دمشق أعماه النور الإلهي لأنه لم يكن قد آمن بالمسيح بعد (أع ٩: ٣–٨). ويقول القديس غريغوريوس بالاماس إن مريم المجدلية، وخلافاً لبولس، أعطي لها أن تعاين نور القيامة المالئ القبر وأن تبصر ما كان بداخله بالرغم من أن نور النهار لم يكن قد أشرق بعد. وقد مكّنها النور أيضاً من أن تبصر الملاكين وأن تتحادث معهما (يو٢٠:١١– ١٣). في عقيدتنا أنه بتجسد الكلمة الإبن الوحيد «تجمّع» النور الإلهي إذا جاز التعبير في المسيح، الإله الإنسان، والذي فيه حلّ جسدانياً ملء الألوهة. أي إن طبيعة يسوع البشرية تألهت باتحادها بالطبيعة الإلهية، وهو باكورة الطبيعة البشرية الجديدة أو بالحري المتجددة فيه. هذا يعني أيضاً أن المسيح تلألأ بالنور الإلهي طيلة حياته العلنية على الأرض ولو أن هذا النور بقي محجوباً عن أعين غالبية الناس. التجلّي إذاً لم يكن حدثاً محصوراً في مكان وزمان معيّنين، ولم يتغير شيء في المسيح آنذاك، ولا حتى على مستوى طبيعته البشرية. ما تغير هو إدراك التلاميذ الثلاثة الذين أعطي لهم أن يعاينوا لوقت ما و«حسبما استطاعوا» سيدهم كما هو، مشرقاً بنور ألوهيته الأزلي. ما حدث للرسل عندها كان خروجاً من زمانهم الحاضر وإدراكاً لحقائق الدهر الآتي. القديسون الذين أوتوا معاينة النور الإلهي كانوا منذ الأرض في تذوق لحياة الملكوت، التي هي معرفة الله بنعمة روحه القدوس. يقول أبونا المغبوط صوفروني ساخاروف عن معاينة الله: «من اللحظة التي استنار فيها التلاميذ بهذا النور دخل في تاريخ عالمنا الأرضي وصار إرثاً من جيل إلى جيل للذين يؤمنون بالمسيح الإله. ولولا هذا النور لبقيت الأرض محرومة من معرفة الله الحقيقية».

قلنا إن التجلّي لم يكن حدثاً محصوراً في زمان ومكان معيّنين. وإذا كان المسيح ما زال حياً في كنيسته فهذا يعني أن معاينة النور الثابوري ممكنة لأبناء الكنيسة في كل زمان ومكان. هذا ما تعلّمنا إياه الكنيسة، وهي تعلّمنا أيضاً السبيل إليه. إن معاينة النور الإلهي بأعين الجسد تقتضي إشتراكنا كيانياً في هذا النور. فالاختبار الروحي الحقيقي يفترض تغييراً لطبيعتنا بالنعمة الإلهية، أي تنقية هذه الطبيعة من الشوائب الأرضية العالقة بها. الطبيعة البشرية المنقاة بالجهادات الروحية تسترد شفافيتها الأولى فيعبر فيها النور كما في بلور نقي. عن هذا يقول القديس غريغوريوس بالاماس إن المشارك في هذه الطاقة الإلهية يصير بشكل من الأشكال نوراً. فهو يتحد بالنور وبهذا النور يعاين ما كان للكثيرين محجوباً. فهو لا يتجاوز حواسه الجسدية وحسب بل طاقاته الفكرية والعقلية أيضاً ليدرك ما لا يقوى على إدراكه أي عقل أو فكر. ذلك أن أنقياء القلوب يعاينون الله، والله الذي هو نور يسكن فيهم ويكشف ذاته لهم.

في الختام، الروحانية الأرثوذكسية لا تفصل بين الجسد والروح في عيش الخبرة الصوفية. ذلك أن صفة «إنسان» لا تنطبق على الروح وعلى الجسد كل على حدة، بل عليهما مجتمعين، والذي خُلق على صورة الله ومثاله هو هذا الإنسان بكلّيته، على حد تعبير بالاماس. الجهادات الروحية تنقي الجسد أيضاً وتصيّره «جسداً روحياً». فغايتنا هي

تأمل

«مكتملين بفكر واحد».

ان الاهتمام بالأفكار الصالحة التي تدفع المسيحي إلى الحياة الروحية الفاضلة حريّ بكل تقدير. فالسيد الذي أظهر هذا القدر من الرحمة، وفعل كل شيء من أجل خلاصنا يغبط كل مَن يحيا حياة سامية مرتبطة وثيقاً بالأفكار الصالحة. يغبط الفقراء بالروح والحزانى من أجل خطاياهم والودعاء والجياع والعطاش إلى البرّ والرحماء والأنقياء القلوب وصانعي السلام وكل الذين يصيرون راغبين في الإضطهادات من أجل المسيح والذين يهانون ويوَّبخون من الأعداء. كل هؤلاء سيتمتعون بالحياة المغبوطة. فإذا كان بعث الإنسان الروحي الجديد يبتدئ بالأفكار السماوية المقدسة فالإكليل الذي لا يفنى يحاك في الوقت نفسه في السماء. ان الدرس العقلي للحقيقة سيكون الطريق الأمين والسلّم نحو السماء، نحو الحياة الخالدة المغبوطة.

ان الدرس العقلي ضروري للتقدّم الروحي. أولئك الذين يدرسون بعقولهم حياة الرب يحصلون على «المسكنة بالروح» وعلى ان «لا استرداد «جمال العنصر الأول» لا أن نتأمل في الله عقلياً. المتنقون من شوائب أرضيتهم يعاينون الله في ملء طبيعتهم المخلوقة، وفي الدهر الحاضر على قدر ما تسمح به النعمة.

التقدمة الإفخارستية

يتألّف المحور الأساسي (الكلام الجوهري) للقداس الإلهي الأرثوذكسي من ثلاثة أجزاء مترابطة ببعضها وهي: كلمات التأسيس والتذكارات واستدعاء الروح القدس على القرابين. وتعبّر عناصر الكلام الجوهري هذه عن سر العمل الإلهي الذي تمّ لأجل حياة وخلاص كل الذين يسعى المسيح أن يتحدهم معه في شركة أبدية.

يذكرنا الجزء الأول، أي كلمات التأسيس، بأن الرب يسوع هو المحتفل الحقيقي بالسر. فالسر المعطي الحياة يتجلّى للعيان ويتكشّف تحديداً لأن المحتفل به هو كاهننا الأعلى، وسيطنا والمدافع عنا أمام الله الآب، الذي بتقديمه ذاته على الصليب جعل مسامحة الخطايا والمصالحة مع الله ممكنين لكل العالم (١ يو ٢: ١–٢). عندما يتلو الكاهن، باسم الشعب، كلمات التأسيس، فهو يجعل الكلمات التي نطق بها يسوع في العشاء الفصحي مسموعة بوضوح لنا اليوم. فقد قال الرب عن الخبز والخمر: «هذا هو جسدي... هذا هو دمي». عبر هذه الصيغة الليتورجية المقرونة بحضور الروح القدس وقوته، يجعلنا القداس الإلهي معاصرين للتلاميذ في العليّة وللذين استقبلا الرب القائم من بين الأموات في بيتهما في عمواس. الزمان والمكان يتداخلان في هذه اللحظات الليتورجية ونكون حقيقة مع الرب يسوع وتلاميذه في أورشليم.

الجزء الثالث من الكلام الجوهري هو استدعاء الروح القدس. هذه الصلاة يرفعها الكاهن إلى الله الآب باسم كل الجماعة المؤمنة ويطلب فيها بحرارة أن يرسل الآب روحه القدوس المعطي الحياة على الشعب المؤمن المجتمع وعلى الخبز والخمر المقدَّمين لكي يحوّل الشعب والقرابين إلى جسد المسيح. «نطلب ونتضرّع ونسأل فأرسل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة» لكي يكون هناك تحوّلاً جذرياً إلى نمط وجودي جديد ومتسامي فينا وفي القرابين الموضوعة. تؤكد صلاة الإستدعاء هذه على حقيقة أساسية وهي أن شعب الله يشكّل الكنيسة الجامعة وأن أساس الكنيسة وسندها هو شركة المؤمنين في جسد المسيح ودمه. لذا، فإن الرسول بولس يستعمل عبارة «جسد المسيح» للإشارة إلى أعضاء الجماعة الكنسيّة وللخبز المقدس المعطى «لأجلكم» (١ كور ١٠: ١٦–١٧ و١١: ٢٣–٢٧). فالكنيسة في جوهرها إفخارستية.

يبقى الجزء الأساسي من الكلام الجوهري والمعروف بالتذكارات. والتذكر في المفهوم الكتابي والليتورجي يجعل الحدَث الماضي حاضراً الآن وهنا، أي نتذكره لكي نعيشه من جديد. في التذكارات تذكر الصلاة الأحداث الخلاصية من الخلق والسقوط وعمل الله لخلاص البشر الحاصل بذبيحة المسيح على الصليب وصولاً إلى قيامة المخلّص وصعوده. هنا أيضاً يتداخل الزمان والمكان، الماضي والحاضر والمستقبل، بحيث نتذكر أيضاً ما لم يحدث بعد، وتحديداً «المجيء الثاني المجيد» لربنا يسوع في نهاية الزمن الحاضر.

يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي بل يرتئي إلى التعقّل» (رو١٢: ٣). يفكرون ان المسيح صار فقيراً من أجلنا. أخذ صورة عبد وعاشر العبيد واتخذ جسداً وهو السيد، وفضّل الفقر وهو الإله الذي لا حدّ له، الواهب الخيرات الغنية، واحتمل الإهانة وهو ملك المجد، وطاف مقيّداً وهو الذي حلّ عقالات الخطيئة واعتق الجنس البشري منها، وحوكم من متجاوزي الشريعة وهو واضع الشريعة ومتممها. لقد رأى من أعطاه الآب «كل سلطة» (يوحنا ٥: ٢٢)، رأى قضاة ظالمين وشعباً بكامله يثور حانقاً ضده ويصفح لسفاح ولص. فالمسيحي الذي يفكر بكل هذه الأمور لا يمكنه إلا أن يحطم كبرياءه ويتضع. يفاخر المتكبر بما يقوم به لكنه عندما يتأمل بأعمال المسيح العظيمة ويعيها فأنه يرى أن أعماله لا تساوي شيئاً ولا يمكن أن تكون مجالاً للفخار، يراها غير جديرة بتحريره من عبودية الخطيئة ويرى انه غير أهل ليحافظ على الحرية الروحية بجهده الخاص. ان المخلّص قد أعتقنا من الخطيئة بدمه الكريم ووهب لنا هدية الحرية الكبرى.

القديس نيقولا كاباسيلاس

تُتَوَّج التذكارات بحركة تقدمة تمثّل كل الخدمة الإفخارستية. يضع الكاهن ذراعيه فوق بعضهما بشكل صليب ممسكاً الكأس المملوءة خمراً والصينية الموضوع عليها الحمل الإفخارستي ويرفعهما معلناً «التي لك مما لك نقدّمها لك عن كل شيء ومن جهة كل شيء». فبعد الطلبات والأندیفونات وقراءة الرسالة والإنجيل والعظة، وبعد نقل القرابين من المذبح إلى المائدة المقدسة وتلاوة دستور الإيمان والدخول في الكلام الجوهري وتعداد الأحداث الخلاصية وكلام التأسيس (خذوا كلوا... اشربوا منه كلكم)، يتوّج الكلام الجوهري بـ«التي لك مما لك...» والتي تعتبر النقطة المركزية في القداس الإفخارستي. تمثّل هذه الكلمات تحقيق وكمال «ليتورجيتنا»، شركتنا، عملنا الكنسي، التي ليست سوى جواب نقدّمه بشكل تضرّع وشكر إلى مؤسس الأسرار الحقيقي. انه هو الذي يتقبّل هذه القرابين المقدسة ليجعلها، لأجلنا ولأجل العالم، جسد المسيح ودمه الكريمين اللذين يغذّياننا لحياة أبدية.

الله يعطينا غلال الأرض المتواضعة، القمح والعنب، ونحن نتقبلها وبجهودنا نحوّلها إلى خبز وخمر نقدمهما مجدداً له. يتقبلهما من أيدينا ليحوّلهما إلى قرابين افخارستية، «القدسات»، أي اننا نقدم لله مما منحنا هو، ويتقبلها لكي يقدّمها لنا مجدداً نبعاً سامياً للحياة.

هذه الحركة الليتورجية التي يقوم بها الكاهن هي بالحقيقة مقامة من كل جماعة المؤمنين. ففي المعمودية نُستعاد كلنا كهنة ملوكيين. وعبر تقديم أنفسنا والخبز والخمر، نحن نقدّم لله كل العالم أيضاً معنا. هذا جزء أساسي من الخدمة الليتورجية في الكنيسة. ما لم نقدم «بعضنا بعضاً»، من أبناء الجماعة الكنسية وخارجها، إلى المسيح الإله، فإن الإفخارستيا تعتبر ناقصة وغير مكتملة. «التي لك مما لك نقدّمها لك عن كل شيء ومن جهة كل شيء». هذا لا يعني «الأشياء» فقط بل «كل البشر»، كل مَنْ خُلق على صورة الله.

عندما نجتمع ككنيسة للإحتفال بالإفخارستيا، فنحن لا نجتمع كجماعة منغلقة أو مجموعة مختارة ومنعزلة عن باقي المجتمع. نحتفل لأجل الأقربين والأبعدين أيضاً، لأجل الأصدقاء وغير المؤمنين والأعداء والمهمشين وضحايا الحروب والنزاعات والظلم الإجتماعي، ولأجل كل الذين سألونا «نحن غير المستحقين أن نصلّي من أجلهم». صلاتنا الإفخارستيا ليست سوى صلاة «لأجل حياة العالم وخلاصه».

عيد التجلّي

بمناسبة عيد تجلّي ربنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الأربعاء ٥ آب ٢٠٠٩ في كنيسة أبوينا البارين أنطونيوس الكبير وبورفيريوس الرائي وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الخميس ٦ آب في كنيسة دير القديس جاورجيوس في سوق الغرب.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb